التمكين

عناصر الموضوع

مفهوم التمكين	٤٧٨
التمكين في الاستعمال القرآني	٤٧٩
الألفاظ ذات الصلة	٤٨٠
التمكين مشيئة إلهية	٤٨٢
أنواع التمكين	٤٨٥
مقومات التمكين	٤٨٩
أهداف التمكين	٥٠٤
أسباب زوال التمكين	٥٠٦

مفهوم التمكين

أولًا: المعنى اللغوي:

مشتق من تمكن يتمكن تمكنًا فهو متمكن، يقال: تمكن الشخص بالمكان: أي: استقر فيه ورسخ، يقال: مكانك أيها اللص: أي: اثبت في مكانك، وتمكنت من الأمر، أي: صار عندي سهلًا، وتمكن الشخص من الأمر، أي: أصبح ذا قدرة عليه أو ظفر به، وتمكن عند الناس، أي: علا شأنه عندهم[١].

نستدل مما سبق أن التمكين في اللغة يدل على معاني القوة، والقدرة، والاستقرار، والعلو، وعلى ذلك يكون المراد به لغة: إعطاء ما يصح به الفعل من الآلات والأدوات، وإزالة ما يمنع هذا الفعل[٢].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

يرى الخازن أن التمكين: «هو أن لا ينازع الممكن منازع فيما يراه ويختاره»[٣].

ويرى ابن عرفة: «التمكين هو القدرة على الفعل»[٤].

وقد سئل الإمام الشافعي رحمه الله يومًا: أيٌّ أفضل الصبر أو المحنة، أو التمكين؟

فقال الشافعي رحمه الله: «التمكين درجة الأنبياء، ولا يكون التمكين إلا بعد المحنة، فإذا امتحن صبر، وإذا صبر مكن، ألا ترى أن الله عز وجل امتحن إبراهيم عليه السلام ثم مكنه، وامتحن سليمان عليه السلام، ثم مكنه، وآتاه ملكًا، والتمكن أفضل الدرجات»[٥].

واستنادًا لما سبق يمكن القول بأن التمكين اصطلاحًا: هو منزلة رفيعة يهبها الله سبحانه وتعالى للصالحين من عباده بعد صبرهم على الابتلاءات والمحن، فتسمو مكانتهم، وتعلو كلمتهم، ويسود شرعهم، وتمتلأ الدنيا بنورهم عدلًا، وبهديهم إحسانًا وبرًا.

فالمعنى الاصطلاحي لا يخرج عن معانيه اللغوية.

---

(١) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص٢٧٩، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٥٧٧، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٨٨١.

(٢) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص١١١، شمس العلوم، نشوان الحميري ٩/ ٦٣٦١.

(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٥٣٦.

(٤) انظر: تفسير ابن عرفة، ١/ ٣٥٨.

(٥) تفسير الإمام الشافعي ٢/ ٩٧٨.

التمكين في الاستعمال القرآني

وردت مادة (مكن) الدالة على (التمكين) في القرآن الكريم(١٨) مرة[١]، وهي على النحو الآتي:

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٠	﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[يوسف:٢١]
الفعل المضارع	٤	﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص:٥٧]
صيغة المبالغة	٤	﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾[التكوير:٢٠]

وجاءت مادة (مكن) الدالة على (التمكين) في القرآن الكريم بمعناها اللغوي، وهو من القدرة على الشيء وإطاقته، مع زوال المانع[٢]، أو من الرسوخ والاستقرار[٣]، وأصله من المكان، والمكان لغةً: هو الحاوي للشيء، كما في قول الله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾[الكهف:٨٤].

يعني: «أعطيناه ملكًا عظيمًا متمكنًا، فيه له من جميع ما يؤتى الملوك، من التمكين والجنود، وآلات الحرب والحصارات؛ ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض، ودانت له البلاد، وخضعت له ملوك العباد، وخدمته الأمم، من العرب والعجم»[٤].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٦٧٢.
(٢) انظر: عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ٤/ ١٠٤.
(٣) انظر: التعريفات، الجرجاني ص٦٦.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٨٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ النصر:

النصر لغة:

النون والصاد والراء أصلٌ صحيحٌ يدل على إتيان خيرٍ وإيتائه. ونصر الله المسلمين: آتاهم الظفر على عدوهم[١].

النصر اصطلاحًا:

العون، ويختص لفظ النصر بأنه إعانة في مقابل العدو المتربص، إما بالظفر عليه، وإما بدفع مضرته[٢].

الصلة بين التمكين والنصر:

التمكين أعظم من النصر، وذلك أن حدوث التمكين قد يتطلب سلسلة من الانتصارات.

٢ الغلبة:

الغلبة لغة:

من غلب يغلب غلبةً، وهو القهر[٣].

الغلبة اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي، قال الراغب: «الغلبة القهر»[٤]. والمقصود هو قهر العدو.

الصلة بين التمكين والغلبة:

أن الغلبة قد تكون مؤقتة سرعان ما تزول، قال تعالى: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ [الروم: ٣].

والفرس غلبت الروم، ولكن سرعان ما أعقب هذه الغلبة هزيمة للفرس على يد الروم[٥]، ولكن التمكين يكون معه دوام الغلبة واستقرارها.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٣٥.
(٢) المفردات، الراغب ص٨٠٨، الفروق اللغوية، العسكري ص١٨٩، الكليات، الكفوي ص ٩٠٩.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٣٨٨.
(٤) المفردات، ص٦١١.
(٥) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ١٩٥.

٣ الاستخلاف:

الاستخلاف لغةً:

من خلف، ويعني أن يجيء شيء من بعد شيء يقوم مقامه[١].

الاستخلاف اصطلاحًا:

هو «استرعاء يختص لمن ينصح للمرعي، فيؤدي عن الله أمره ونهيه، ولا يأخذه في الدين لومة لائم، ولا سطوة جبار»[٢].

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٥٥].

الصلة بين الاستخلاف والتمكين:

أن الاستخلاف لا يكون إلا مع الاستبدال (أي: استبدال الصالحين مكان الطالحين)، ولا يشترط الاستبدال مع التمكين[٣].

٤ العزة:

العزة لغةً:

عز أي: اشتد وقوي[٤].

العزة اصطلاحًا:

صفة تفيد حصول الفوقية والغلبة لله سبحانه وتعالى وعباده الصالحين على أعدائهم[٥]، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[المنافقون: ٨].

الصلة بين العزة والتمكين:

أن العزة من لوازم التمكين.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢١٠.
(٢) غرائب القرآن، النيسابوري، ١/ ٣٩٥.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ١٥٦.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٣٨.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٢٩.

التمكين مشيئة إلهية

يقول مصطفى مسلم: «إن لفظة التمكين في القرآن الكريم لا تأتي إلا للشيء الذي لا تسعفه الأسباب المادية من الوصول إليها، فيأتي بأسباب وتدابير ربانية غير عادية»(١).

وذلك يعني أن حصول التمكين مرتبط بالمشيئة الإلهية التي تقتضي توفير أسباب غير عادية تؤدي إلى حصول هذا التمكين، وفيما يلي أمثلة تبرهن على ذلك:

- تمكين الله سبحانه وتعالى لنبيه إبراهيم عليه السلام.
- تمكين الله سبحانه وتعالى لنبيه يوسف عليه السلام.
- تمكين الله سبحانه وتعالى عباده المسلمين من الانتصار على أعدائهم المشركين خلال فترات الصراع بين المسلمين والمشركين على الرغم من اختلال موازين القوى، وذلك كما حدث على سبيل المثال في غزوة بدر، والخندق، والحديبية.

فإن قيل: ما الأسباب والتدابير الربانية التي توفرت فيما سبق ذكره من أمثلة؟

فالجواب كما يأتي:

أولًا: بالنسبة لإبراهيم عليه السلام، فبعد أن صبر على دعوته لقومه إلى عبادة الله وحده، وصبر على ما لاقاه من الأذى والتنكيل في سبيل هذه الدعوة مكنه الله سبحانه وتعالى بأن أنجاه من النار، قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

ولما اعتزل قومه وأصنامهم وهبه الله سبحانه وتعالى الولد على الرغم من كبر سنه، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

ولما أمره الله سبحانه وتعالى بترك ذريته في مكة عند البيت الحرام دون أن يتوفر عندهم المياه، ففجر الله عين زمزم(٢).

ثانيًا: بالنسبة ليوسف عليه السلام: فبعد أن ألقاه إخوته في الجب لهلك وحيدًا، مكنه الله سبحانه وتعالى بأن خلصه من الجب، وآواه في بيت العزيز.

قال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ ۚ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا

(١) مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم ص٢١٦.

(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٢٠١.

يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ١٩-٢١].

يقول الدكتور وهبة الزحيلي: «خطط إخوة يوسف للتخلص نهائيًا من أخيهم، فباءوا بالخيبة والفشل؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الإله القادر المنفذ لما يريد»(١).

وبعد أن كبر وصار شابًا وقع في محنة مراودة امرأة العزيز له عن نفسه.

قال تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

ولما استعصم سجن ظلمًا وعدوانًا.

قال تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢].

فمكنه الله سبحانه وتعالى، بأن أخرجه من السجن ليكون عزيز مصر(٢).

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٤-٥٦].

(١) الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٠٩٨.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٢١٧.

ثالثًا: بالنسبة للمسلمين أتباع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: فقد مكنهم الله سبحانه وتعالى من أعدائهم المشركين في مواطن عديدة منها:

يوم بدر، حيث كان المسلمون على قلة في العدد والعدة مقارنة بالمشركين، ومع ذلك نصرهم الله تعالى على عدوهم نصرًا مؤزرًا، علت بسببه مكانة المسلمين بين الأمم، وفي المقابل انحدرت مكانة المشركين وضاعت هيبتهم بين الأمم(٣).

وقد حكى القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧].

وبغية تحقيق هذا الوعد الإلهي.

قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].

واستمر الدعم الإلهي للمؤمنين في هذه الغزوة حتى وصل إلى ما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

وقد روى ابن حبان في صحيحه قال: قال أبو زميل: حدثني ابن عباس قال: بينما

(٣) انظر: العذب النمير، الشنقيطي ٤/ ٢٧٧.

رجل من المسلمين، يومئذ يشد في إثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس فوقه يقول: أقدم حيزوم، إذ نظر إلى المشرك أمامه خر مستلقيًا فنظر إليه، فإذا هو خطم أنفه، وشق وجهه بضربة سوط، فاخضر ذاك أجمع، فجاء الأنصاري، فحدث ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال صلى الله عليه وسلم: (صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة)[1].

يوم الخندق: حيث تكالبت قوى الشر الممثلة في الأحزاب لضرب المسلمين عن قوس واحدة، وقد كانت ظروف المسلمين حينها غاية في الصعوبة، فلا وفرة في الطعام ولا دفء، إضافة إلى خذلان المنافقين، ونكوث العهد من قبل يهود بني قريظة بتحالفهم مع الأحزاب ضد المسلمين.

وقد وصف الله سبحانه وتعالى ذلك بقوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠-١١].

ومع ذلك مكن الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين ونصرهم على عدوهم دون قتال[2].

قال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

يوم الحديبية: حيث ظن المسلمون في بداية الأمر أن قريشًا غدرت بهم، وقتلت عثمان بن عفان رضي الله عنه، ولم يكونوا قد أعدوا العدة لمواجهة هذا الموقف العصيب؛ إذ لم يكن معهم سوى سلاح الراكب المسافر، ومع ذلك قرروا إعلاء شأن دينهم، وبايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم على قتال المشركين، وبعدها جاء التمكين الإلهي للمؤمنين، فقد عاد عثمان رضي الله عنه سالمًا، وأرسلت قريش سهيل بن عمرو ليفاوض النبي صلى الله عليه وسلم، فنجم عن ذلك صلح الحديبية والذي كان بمثابة بداية الطريق لنصر عظيم مؤزر من الله سبحانه وتعالى به على المؤمنين، فما هي إلا سنتين حتى نكثت قريش عهدها مع الرسول صلى الله عليه وسلم، مما أدى إلى فتح مكة عام (٨هـ)[3].

وقد حكى القرآن الكريم ذلك، فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة، ٣/ ١٣٨٣، رقم ١٧٦٣.

(٢) انظر: السيرة النبوية، كما جاءت في الأحاديث الصحيحة، محمد الصوباني ٣/ ٩٤.

(٣) انظر: دلائل النبوة، البيهقي، ٤/ ١٦٠.

١٨].

وقد أكد الله مشيئته بتمكين المؤمنين بوعد يساوي في قوته القسم.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

ومما يؤكد أن وعد الله بذلك يساوي القسم دخول اللام في جواب القسم المفهوم من الوعد، وذلك في الوعود الثلاثة: (الاستخلاف والتمكين واستبدال الخوف بالأمن) إضافة إلى وجود نون التوكيد الثقيلة في الوعود الثلاثة، مما يؤكد أن ذلك واقع لا محالة إن تحقق الإيمان والعمل الصالح، عبادة بلا شرك.

وهذا دليل قاطع على أن التمكين يتبع لمشيئة الله عز وجل، وليس لإرادة بشرية مهما كانت قوية، فالله يعز من يشاء بعزه، ويذل من يشاء متى يشاء بما يشاء، سبحانه وتعالى القوي القدير صاحب العزة والجبروت.

أنواع التمكين

للتمكين أنواع تحدث عنها القرآن الكريم، نعرضها فيما يأتي:

أولًا: التمكين الخاص:

والتمكين الخاص هو ما كان خاصًا بالأفراد، وبحسب القرآن الكريم فقد حصل لنبي الله يوسف عليه السلام، ولذي القرنين من البشر، ولجبريل عليه السلام من الملائكة، وبيان ذلك فيما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

يقول الشيخ الشعراوي: «وقد بدأ التمكين في الأرض من لحظة دخوله بيت عزيز مصر ليحيا حياة طيبة»(١).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].

يقول الشيخ الشعراوي: «وهكذا كان تمكين الله ليوسف عليه السلام في الأرض

(١) تفسير الشعراوي ١١/ ٦٨٩٩.

بحيث أدار شئون مصر»[1].

ويقول الشيخ محمد الناصري في تفسير هذه الآية أن فيها: «إشارة إلى ما أكرم الله به يوسف من الحرية والسعة والنفوذ والتصرف في أرض مصر...»[2].

والملاحظ أن التمكين في الآيتين السابقتين هو تمكين خاص بفرد واحد هو نبي الله يوسف عليه السلام، كما يلاحظ أن الآية الأولى أشارت إلى تمكين جزئي ليوسف عليه السلام، فكل ما حصل له أنه نجا من الجب، وانتقل للعيش في بيت يكفل له الحياة الكريمة، فهذا وإن كان بمثابة نقلة نوعية في حياة يوسف عليه السلام، إلا أنه لا يرقى ليصل إلى درجة العلو والهيمنة، وهذا ما نوه إليه الشيخ الشعراوي رحمه الله، حين وصف التمكين المذكور في الآية الأولى بأنه بداية التمكين وليس تمام التمكين[3].

بينما نجد أن الآية الثانية قد أشارت بالفعل إلى التمكين الكلي لنبي الله يوسف عليه السلام، حيث أصبح يدير شئون مصر كما ذكر المفسرون.

يقول الدكتور علي الصلابي: «فإذا تأملت في الآيتين تلاحظ أن الآية الأولى أشارت للتمكين الجزئي ليوسف عليه السلام، والآية الثانية للتمكين الكلي في حقه...»[4].

وبناءً على ذلك يمكن القول بأن التمكين المذكور في الآية الثانية هو تمكين خاص كلي.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٣- ٨٤].

يقول المراغي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ «أي: مكنا له أمره من التصرف فيها كيف شاء، بحيث يصل إلى جميع مسالكها، ويظهر على سائر ملوكها، وآتيناه من كل شيء أراده من مهام ملكه وبسطة سلطانه طريقًا يوصله إليه، فآتيناه العلم والقدرة والآلات التي توصله إلى ذلك»[5].

ويتضح من خلال كلام المراغي رحمه الله، أن تمكين الله سبحانه وتعالى لذي القرنين هو تمكين خاص كلي.

قوله تعالى: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠].

ومعنى مكين هنا: أن جبريل عليه السلام، ذو جاه ومنزلة رفيعة عند الله سبحانه وتعالى[6]، ومن ثم فتمكين الله سبحانه وتعالى لجبريل عليه السلام هو

(١) المصدر السابق ١١/ ٧٠٠١.
(٢) التيسير في أحاديث التفسير ٣/ ١٨٨.
(٣) انظر: تفسير الشعراوي ١١/ ٦٨٩٩.
(٤) فقه النصر والتمكين ص٧.
(٥) تفسير المراغي، ١٦/ ١٦.
(٦) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٦٠٧.

تمكين خاص كلي.

ثانيًا: التمكين العام:

والتمكين العام هو ما كان غير مختص بفرد معين، وإنما يكون للجماعات، وبحسب القرآن الكريم فقد ثبت هذا التمكين لأصحاب القرون الأولى مثل قوم نوح، وعاد، وثمود، ولأهل مكة، وللمؤمنين الصادقين، وبيان ذلك فيما يلي:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

قال أبو جعفر الطبري: «يقول سبحانه وتعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ألم ير هؤلاء المكذبون بآياتي، الجاحدون بنبوتك، كثرة من أهلكت من قبلهم من القرون الذين وطأت لهم البلاد والأرض توطئة لم أوطئها لهم، وأعطيتهم فيها ما لم أعطهم»(١).

ويقول أبو الحسن النيسابوري في تفسير قوله تعالى: ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ «أعطيناهم من المال والعبيد والأنعام ما لم نعطكم»(٢).

وبناءً على ذلك، نفهم من كلام المفسرين أن تمكين الله سبحانه وتعالى لأصحاب القرون الأولى مثل قوم نوح، وعاد، وثمود، كان تمكينًا عامًا كليًا.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠].

يقول أبو السعود في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ «لما أمر الله سبحانه أهل مكة باتباع ما أنزل إليهم، ونهاهم عن اتباع غيره، وبين لهم وخامة عاقبته بالإهلاك في الدنيا والعذاب المخلد في الآخرة ذكرهم ما أفاض عليهم من فنون النعم الموجبة للشكر ترغيبًا في الامتثال بالأمر والنهي إثر ترهيب، أي: جعلنا لكم فيها مكانًا وقرارًا، أو ملكناكم فيها وأقررناكم على التصرف فيها»(٣).

ويفهم من هذا الكلام أن تمكين الله سبحانه وتعالى لأهل مكة كان تمكينًا عامًا كليًا.

ومن الجدير بالذكر أن الله تعالى قد مكن لتلك الأقوام على الرغم من كفرها؛ لأنها أخذت بأسباب التمكين المادية كإعداد الجيوش، وامتلاك الأموال وغير ذلك، ولكنهم لما تركوا السبب الأهم لبقاء التمكين وهو اتباع الرسل، أهلكهم الله تعالى.

(١) جامع البيان ١١/ ٢٦٣.
(٢) الوجيز ص ٣٤٥.
(٣) إرشاد العقل السليم ٣/ ٢١٤.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

يقول مقاتل بن سليمان في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، «يعني: أرض المدينة وهم المؤمنون بعد القهر بمكة»[(١)].

ومعنى التمكين في هذه الآية: النصر على العدو[(٢)]، وبالفعل فإن الله سبحانه وتعالى قد مكن الصحابة الكرام ومن بعدهم من المؤمنين من عدوهم بعد هجرتهم إلى المدينة المنورة فألحقوا به الهزيمة تلو الهزيمة بدءًا بغزوة بدر عام (٢هـ) مرورًا بغزوة فتح مكة عام (٨هـ) ووصولًا إلى اتساع الفتح الإسلامي حتى وصل إلى الصين شرقًا والمحيط الأطلسي غربًا، وقد كان هذا التمكين تمكينًا عامًا كليًا.

وقد وعد الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين الصادقين بتمكينهم في الأرض تمكينًا عامًا كليًا ما داموا على إخلاصهم له سبحانه، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

يقول الدكتور مازن عيسى: «فهذا الوعد مناسب لكل من اتصف بهذا الوصف، فلما اتصف به الأولون استخلفهم الله كما وعد، وقد اتصف بعدهم به قوم بحسب إيمانهم وعملهم الصالح، فمن كان أكمل إيمانًا وعمل صالحًا، كان استخلافه المذكور أتم، فإن كان فيه نقص وخلل كان تمكينه خللًا ونقصًا؛ وذلك أن هذا جزاء هذا العمل، فمن قام بذلك العمل استحق ذلك الجزاء»[(٣)].

(١) تفسير مقاتل بن سليمان ٣/ ١٣٠.
(٢) انظر: فتح البيان، القنوجي ٩/ ٥٨.
(٣) الإصابة في الذب عن الصحابة رضي الله عنه ص١١٩.

مقومات التمكين

مما لا شك فيه أن الإنسان مطالب إلى جانب عبادة الله سبحانه وتعالى وحده، أن يحصل على التمكين في الأرض، فقد قال ربنا جل علا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

وإسناد هاتين المهمتين للناس دليل على أنه لا مجال لأداء العبادات بحرية دون قيد إلا بتحقيق الاستخلاف في الأرض، وإن الاستنكاف عن السعي لتحقيق أي من المهمتين يعني ضياع المهمة الأخرى وعدم التمكن من تحقيقها، وهذا يعني الإفساد في الأرض، يفهم هذا من رد الملائكة لما أخبرها الله عز وجل أنه سيجعل في الأرض خليفة قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

قالوا ذلك لعلمهم بما كان من الجن الذين أفسدوا في الأرض، فعاقبهم الله سبحانه وتعالى، وحتى يتجنب الإنسان من الوقوع فيما وقع فيه الجن من قبل، لابد له من المحافظة على ما أسند له ربه سبحانه وتعالى من مهمات، ولضمان ذلك لابد له أن يحصل على التمكين في الأرض، وللحصول على هذا التمكين لابد من توفر المقومات الواردة فيما يلي:

أولًا: الإيمان:

يقول الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

في هذه الآية نجد أن الله سبحانه وتعالى قد ربط بين تحقيق الإيمان وحصول الاستخلاف، ويفهم من هذا الربط أن تحقق الإيمان شرط أساس لحصول الاستخلاف، فلا استخلاف دون إيمان[1].

وهذه القاعدة لا تقف عند هذا الحد فقط، بل إن الأمر يتعدى ذلك إلى كون الاستخلاف باقيًا ما دام الإيمان متحققًا عبر الأجيال التي حصل آباؤها على الاستخلاف في الأرض، وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك من خلال إحدى قصص بني إسرائيل، وهي تلك التي وردت في سورة الإسراء.

قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ۝ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ

(١) انظر: نور الإيمان وظلمات النفاق، الدكتور سعيد القحطاني ص٢٣.

﴿نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾[الإسراء: ٢-٧].

فهذه الآيات تبين أن الله سبحانه وتعالى قد من على المؤمنين الذين كانوا مع نوح عليه السلام، بأن نجاهم من الغرق الذي أصاب الكافرين آنذاك وذلك يعتبر تمكينًا لهم.

ثم جاء من بعدهم خلفٌ من ذريتهم أفسدوا في الأرض، فأرسل الله سبحانه وتعالى عليهم من يهزمهم شر الهزيمة، وهذا زوال للاستخلاف، وبعد ذلك عاد بنو إسرائيل لرشدهم وإيمانهم، فأعاد لهم العزة والهيمنة، وبذلك عاد لهم الاستخلاف.

ثم أخبر القرآن أنهم سيعودون بعد ذلك إلى الفساد مرة أخرى، وهذا سيؤدي إلى إهلاكهم مرة أخرى، وهذا يعني زوال الاستخلاف تارة أخرى عن بني إسرائيل، ثم يقرر الله سبحانه وتعالى أنه في كل عودة للكفر والإفساد يزول الاستخلاف، وفي كل رجعة إلى الله تعالى بالإيمان والإحسان يرجع الاستخلاف، وهذه القاعدة ليست خاصة ببني إسرائيل وحدهم، وإنما هي سنة إلهية تتكرر لكل من أوكل الله سبحانه وتعالى إليهم مهمة الاستخلاف، يتضح ذلك من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

ونصرة الله سبحانه وتعالى تكون بالجهاد في سبيله، وإعلاء شأن دينه، واتباع رسوله، وموالاة أوليائه، والتزام أوامره، واجتناب نواهيه، وهذه من لوازم الإيمان بالله سبحانه وتعالى[1].

ثانيًا: العمل الصالح:

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

كما هو ملاحظ في هذه الآية، فإن القرآن قد استخدم أحد أهم وأقوى أساليب التوكيد وهو الوعد المكافئ للقسم، من أجل تقرير الوعد الإلهي لمن تحقق فيهم الإيمان مع

(١) انظر: التفسير الواضح، محمد حجازي ١/ ٢٦٦.

المداومة على العمل الصالح بالاستخلاف في الأرض.

وقد دلنا ربنا جل وعلا على الأسس التي يرتبط على وفقها حصول التمكين بالعمل الصالح، وهذه الأسس تتمثل في أنه لحصول العبد على التمكين لابد له من الجمع بين الإيمان الصحيح والعمل الصالح.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[النحل: ٩٧].

كما تتمثل هذه الأسس أيضًا في أنه من غرق في المعاصي والذنوب فإن عاقبته الهلاك وزوال التمكين عنه إن كان من الممكنين.

قال تعالى في سياق وعيده لأهل مكة بسبب كفرهم وعصيانهم بالهلاك أسوة لمن سبقهم من الأقوام الفاسدة: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد: ٨-١٠].

وقد جمع ربنا بين الأساسين السابقين في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وشكر الله سبحانه وتعالى بطاعته وعمل الصالحات، وكفره بجحود نعمه والانغماس في الشهوات[1].

ومن الأسس أيضًا أن أفضل الأعمال الصالحة التي تؤدي إلى حصول التمكين هي الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على أمة التمكين بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ومن الأسس أن أخطر ما يؤدي إلى زوال التمكين هو ترك التناهي عن المنكر، وقد استحق كفار بني إسرائيل اللعنة بسبب ذلك.

قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩].

وقال رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم: **(إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه،**

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٩.

وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد)[1].

ومن الأسس أيضًا أنه لابد من المداومة على العمل الصالح لضمان بقاء التمكين واستمراره.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٠-١٣].

وفائدة الشكر هي استمرار العطاء للشاكر، وترك الشكر يعني الحرمان مما يستوجبه الشكر وترك الشكر عليه[2].

وباستقراء التاريخ يلاحظ أن استخلاف الله سبحانه وتعالى لعباده اقترن بإيمانهم وعملهم الصالحات، وذلك كما حدث مع بني إسرائيل كما هو مبين فيما سبق، وكما حدث مع غيرهم من الأقوام، وفي مقدمتهم الصحابة الكرام، والتابعون وتابعوهم بإحسان، وفي كتب السيرة والتاريخ وغيرها ما يشهد بذلك.

ثالثًا: الأخذ بالأسباب:

إن العبد مأمور بالأخذ بالأسباب، ويتجلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

فالآية تحتوي على أسلوب شرط، وقد ربط الشرط هنا بين الإيمان بالله والتوكل عليه -جل وعلا-، واستنادًا إلى تعريف الشرط بأنه أحد أساليب الخطاب التي تقوم على الربط بين الشرط وجوابه، فلا يتحقق الثاني إلا بتحقيق الأول، يمكن القول بأنه لا يتحقق الإيمان إلا بتحقق التوكل، ومعنى الآية: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿فَتَوَكَّلُوٓا۟﴾ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾.

وقد حذف جواب الشرط؛ لأنه تقدم في الآية ما يدل عليه وهي جملة ﴿فَتَوَكَّلُوٓا۟﴾، ومن المعلوم أن التوكل على الله سبحانه وتعالى لا يتم إلا بأمرين هما:

١. الأخذ بالأسباب الممكنة.

٢. ثم تفويض الأمر إلى الله سبحانه وتعالى مع كامل الثقة به جل وعلا[3].

ومن ثم فإن الأخذ بالأسباب جزء من

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، ٤/ ١٧٥، رقم ٣٤٧٥.

(٢) انظر: التفسير الواضح، محمد حجازي ٢/ ٢٤٨.

(٣) انظر: جهود الشيخ محمد الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف، عبد العزيز الطوبان ١/ ١٦٣.

التوكل على الله سبحانه وتعالى، وبتركه يصبح التوكل تواكلًا، والتواكل مذموم، كما أشار إلى ذلك الخليفة الثاني لرسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عندما قال لأبي عبيدة ابن الجراح رضي الله عنه: «أرأيت لو كان لك إبل هبطت واديًا له عدوتان، إحداهما خصبة والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله!»[1].

ويستفاد من كلام عمر رضي الله عنه، ضرورة الأخذ بالأسباب، مع العلم أن الأخذ بالأسباب من القضاء والقدر.

ولقد علمنا ربنا جل وعلا ضرورة الأخذ بالأسباب، ونجد ذلك جليًا في قوله تعالى لمريم عليها السلام: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥].

والله سبحانه وتعالى قادر على أن يسقط الرطب دون أن تقوم الصديقة مريم عليها السلام بهز النخلة، كما أنه جل وعلا علمنا أيضًا ألا نستهين بالأخذ بالأسباب وإن بدا لنا أنه لا تجدي نفعًا، فمن المعلوم أن المرأة النفساء لا تقوى على هز جذع النخلة، فضلًا عن أن يتسبب ذلك الهز في إسقاط الرطب، فذلك يحتاج إلى جهد يفوق ما تقوى عليه النفساء، ومع ذلك فإن الله سبحانه وتعالى أمرها بالهز، كما علمنا جل شأنه كذلك أن فاعلية الأسباب التي أمرنا بالأخذ بها مرهونة بمشيئته جل وعلا، فهو المسبب للأسباب، والقادر على تعطيلها، ويفهم ذلك من قوله تعالى خلال سرد قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٨- ٦٩].

كما علمنا أنه سبحانه لو أراد أن يجعل ما لم تجر العادة بكونه سببًا لجعل منه سببًا لما أراد أن يكون سببًا له، فهذه العصا التي سأل الله سبحانه وتعالى موسى عنها فرد عليه قائلًا: ﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨].

فذكر موسى عليه السلام الأسباب التي اتخذ العصا من أجلها ولم يكن من ضمنها فلق البحر، ومع ذلك جعلها الله سبحانه وتعالى سببًا لفلق البحر، وأنقذ المؤمنين من فرعون وجنوده.

قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٣-٦٦].

هذا بالإضافة جعلها سببًا لتحقيق أمور أخرى لا تحققها العصا بالعادة، كما علمنا

(١) انظر: المصدر السابق ١/ ١٦٣.

ربنا -جل وعلا- أنه واهب الأسباب، وأنه ما على العبد إلا أن يكون صاحب إرادة لتوظيف هذه الأسباب فيما يرضيه سبحانه يدل على ذلك:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وقوله تعالى عن الرجل الصالح الذي سار معه موسى عليه السلام [١]: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

وقوله تعالى عن ذي القرنين: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٨٤].

والمفهوم من تلك الآيات وغيرها أن الله سبحانه وتعالى هو واهب الملك، والعلم، والقدرة، وسائر الأسباب، وقد فقه أهل الصلاح ذلك كله لذلك: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

والرجلان هما من أهل الصلاح ممن كانوا على دين موسى عليه السلام [٢].

ولذلك أيضًا رفع رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم يديه إلى السماء قبيل غزوة بدر حتى ظهر بياض إبطه الشريف راجيًا ربه أن ينجز له ما وعده من النصر [٣]، مستخدمًا بذلك أقوى الأسباب فاعلية في جلب المصالح ودفع المضار، ألا وهو سلاح الدعاء الخالص لله سبحانه وتعالى [٤]، فنصره الله سبحانه وتعالى، ومن معه من المؤمنين، ولذا أيضًا حفر الرسول صلى الله عليه وسلم ومعه الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين الخندق بأظفارهم وبما توفر لديهم من وسائل يسيرة، مصدقين بذلك قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فأيدهم الله سبحانه وتعالى ونصرهم على الأحزاب [٥]، ولذلك أيضًا حافظ المسلمون على سنة السواك في معاركهم، فكان ذلك سببًا من أسباب نصرهم على

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ١٩٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ١٨٢.

(٣) انظر: مغازي الواقدي، ١/ ٦٧.

(٤) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي ص٤٦٦.

(٥) انظر: دلائل النبوة، البيهقي ٣/ ٣٩٩.

أعدائهم أصحاب القوة والبأس[1]، والتاريخ حافل بدلائل التمكين الإلهي للمؤمنين الآخذين بكل ما توفر لديهم من أسباب النصر والعزة والغلبة.

رابعًا: العلم:

معلوم أن من أحد أهم عوامل تحقيق التمكين في الأرض هو العلم، لاسيما وأنه السبيل إلى الرفعة والهيمنة، وتبيانًا لذلك يقول ربنا جل وعلا: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وقد ربطت الآية الكريمة بين الإيمان وطلب العلم، وذلك الربط يأتي في إطار الإشارة إلى أن طلب العلم يؤتي ثماره الطيبة إذا كان طالب العلم مؤمنًا، فالإيمان هو الضابط لطالب العلم، فلا يوظف علمه إلا بما يرضي الله سبحانه وتعالى، كما يعود بالنفع على البشرية[2].

ومما يبرز الدور الهام لطالب العلم في تحقيق التمكين في الأرض هو المضمون الذي اشتملت عليه آيات القرآن الكريم، فالله سبحانه وتعالى وعد المؤمنين الصادقين بأن يستخلفهم ويمكن لهم دينهم.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

والدين الذي يرتضيه ربنا جل وعلا هو الإسلام.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

والإسلام هو الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم والأنبياء جميعًا، وإن أول ما أوحى به الله سبحانه وتعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم من القرآن هو الأمر بالقراءة.

قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

والقراءة تعد من أهم وسائل طلب العلم، ومن ثم فلا تمكين إلا بإقامة الدين، ولا دين غير الإسلام، وقد بدأ الإسلام بالدعوة إلى طلب العلم.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ [يوسف: ٦٨].

هذه الآية هي ثناء من الله سبحانه وتعالى على نبيه يعقوب عليه السلام لما حصل من العلوم، وبالنظر في نصوص القرآن نجد أن

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ١٩/ ١٩٨٧.
(٢) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١١/ ٧٣٦٦.

يعقوب عليه السلام قد وظف علمه خلال نصحه لأبنائه، فهذا يوسف عليه السلام يروي لأبيه يعقوب الرؤية التي رآها في منامه، فنصحه أبوه ألا يقص رؤيته لإخوته فيكيدوا له.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٤ - ٥].

فيعقوب عليه السلام علم من خلال سماعه الرؤيا أمرين:

الأول: تأويل الرؤيا.

الثاني: الأثر السلبي الذي قد تتركه الرؤيا على إخوة يوسف عليه السلام إذا سمعوا بها، فكانت نصيحته لولده يوسف عليه السلام تهدف إلى المحافظة على بقاء اللحمة بين أولا ده، وهذا يؤدي إلى حصول التمكين.

وفي موقف آخر ينصح أبناءه عندما أرادوا الخروج من عنده، والتوجه إلى مصر قائلًا لهم: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧].

وذلك خوفًا عليهم من العين[1]، ومما لا شك فيه أن نصيحته هذه تدل على علمه بالضرر الذي قد يسبب فيه دخولهم من باب واحد، وتجنب الضرر يؤدي إلى حصول التمكين.

وقال تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: ١١].

يأمر الله سبحانه وتعالى نبيه داود عليه السلام في هذه الآية أن يتقن صنعة الحدادة، وذلك من خلال قوله: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾، أي: تمهل وترو في السرد كي تحكمه[2]، وإتقان الصنعة يؤدي إلى حصول التمكين.

وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [المائدة: ٤].

يقول الزمخشري: «وانتصاب ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ على الحال من ﴿عَلَّمْتُم﴾، فإن قلت: ما فائدة هذه الحال وقد استغنى عنها ب﴿عَلَّمْتُم﴾؟

قلت: فائدتها أن يكون من يعلم الجوارح تحريرًا في علمه مدربًا فيه، موصوفًا بالتكليب ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ حال ثانية أو استئناف، وفيه فائدة جليلة وهي أن على كل آخذ علمًا أن

(١) انظر: التفسير البسيط، الواحدي ١٢/ ١٧٣.

(٢) معجم وتفسير لغوي كلمات القرآن، حسن الجمل ٣/ ٣١٨.

لا يأخذه إلا من أقتل أهله علمًا، وأنحرهم دراية، وأغوصهم على لطائفه وحقائقه، وإن احتاج إلى أن يضرب إليه أكباد الإبل»[1].

وإتقان المهارات يؤدي إلى حصول التمكين.

خامسًا: القوة:

جرت سنة الله سبحانه وتعالى أن يهيئ لمن أراد التمكين لهم الوسائل التي يستطيعون من خلالها الحصول على التمكين، وذلك يعني أنه لابد للذي يسعى للحصول على التمكين في الأرض أن يكون صاحب بضاعة تعينه على تحقيق ما يسعى للحصول عليه، وإن أهم ما تحويه تلك البضاعة هو عنصر القوة، وأهمية هذا العنصر تكمن في أنه الوسيلة التي تتم من خلالها عمليتي الحصول، والمحافظة على التمكين، وتنقسم هذه القوة إلى قسمين هما:

- **القوة المادية:** فهي تتمثل في قوة الجسد، وكثرة العدد والعدد.
- **القوة المعنوية:** فهي تتمثل في رجاحة العقل، وشجاعة القلب.

الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يهب التمكين لأحد أعطاه القوة.

قال تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

والملاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى قد جمع لطالوت بين القوة المادية الجسدية، والقوة المعنوية العلمية، بحيث أنه فاق بما آتاه الله سبحانه وتعالى من القوة أهل زمانه، فكان أهلًا لاختياره ملكًا[2].

وقد قدم الله سبحانه وتعالى قوة العلم على قوة الجسم لبيان أنه لابد من تقديم القوى العقلية على القوى المادية عند استخدام القوة؛ وذلك لتوجيه الطاقات في الاتجاه الصحيح، وعدم تدبيرها وإحسان استثمارها، وفي قصة ملكة سبأ التي أرسل الله إليها سليمان عليه السلام رسالة يدعوها فيها وقومها للإسلام، فاستشارت رؤوس دولتها، فردوا عليها ما مفاده أنهم جاهزون للمواجهة العسكرية ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: ٣٣].

فردت عليهم ردًا يبين رجاحة عقلها، قال تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤ - ٣٥].

وهذا الرد من الملكة يبرز أن تغليب العقل على امتلاك القوة المادية من شأنه أن

(١) الكشاف، الزمخشري ١/ ٦٠٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٣١٣.

يحقن الدماء، ويحفظ الممتلكات، ويبقي على السيادة.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بالسعي بكل جهد للحصول على أسباب القوة؛ بغية الحصول على التمكين.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقد دل الله سبحانه وتعالى عباده على أهم الأسباب التي يؤتي الله سبحانه وتعالى عباده من خلاله وهو الاستغفار.

قال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

وفي مقابل ذلك حذر من الوقوع في الآثام والمخالفات التي من شأنها تدمير القوة مهما بلغت، وإزالة التمكين.

قال تعالى مخاطبًا الكفرة الفجرة: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩].

سادسًا: الأمانة:

جعل الله سبحانه وتعالى الحصول على التمكين أمانة في أعناق المؤمنين، والشواهد على ذلك في القرآن عديدة، منها:

قوله تعالى: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢].

في هذه الآية يأمر ربنا سبحانه يحيى عليه السلام بأن يعرف أحكام الله، وأن يحكم بها وهو صغير[(١)].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥].

في هذه الآية يكلف الله سبحانه وتعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يقضي بين الناس بما علمه من أحكام الدين[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥].

وفي هذه الآية يأمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين أن يقاتلوا المشركين الناكثين عهودهم مع المسلمين وحبسهم ومحاصرتهم ومطاردتهم، وعدم التسامح معهم إلا في حال توبتهم، وإيمانهم بالله

(١) انظر: المصدر السابق ص٤٩٠.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ١٧٥.

سبحانه وتعالى، وأدائهم حقوق الله سبحانه وتعالى عليهم[1].

ومما سبق يمكن القول بأن الله سبحانه وتعالى استأمن يحيى عليه السلام على الحكم بالكتاب الذي أنزله ليكون هدى للناس، واستأمن محمدًا صلى الله عليه وسلم للقضاء بين الناس بموجب أحكام القرآن، واستأمن المسلمين على المحافظة على بلاد المسلمين وتطهيرها من الفجار، وذلك كله يعني أن الله سبحانه وتعالى استأمن عباده على المحافظة على الإسلام، وتطبيق أحكامه في الأرض من خلال بسط المسلمين سيطرتهم على الأرض وتمكنهم منها.

وقد ذم الله سبحانه وتعالى الذين فرطوا في المحافظة على أمانة التمكين.

قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

والمعنى أن الله سبحانه وتعالى قد استأمن اليهود والنصارى على حمل التوراة والعمل بموجب أحكامها، والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، ولكنهم خانوا هذه الأمانة فهم بذلك كالحمار الذي يحمل الكتب التي تحتوي على العلوم الكثيرة، ولكنه لا يعي منها شيئًا[2].

وحتى يتجنب أتباع محمد صلى الله عليه وسلم تلك المذمة لابد لهم من المحافظة على أعظم أمانة استحفظ الله سبحانه وتعالى عليها الإنسان، وهي أمانة الدين.

قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ومسئولية الحفاظ على هذه الأمانة العظيمة وإن كانت تقع على عاتق المسلمين جميعًا، إلا أن الجزء الأكبر من هذه المسئولية إنما تقع على العلماء وأولي الأمر من المسلمين، وقد أعانهم الله سبحانه وتعالى على تحمل هذه المسئولية من خلال توجيه الأمر لعامة المسلمين بطاعة أولي أمرهم وعلمائهم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وقال أيضًا: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

والمقصود بالذين يستنبطونه هم:

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣٣٧.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٣٧٧.

العلماء النحارير[1]، وقد أعانهم أيضًا من خلال الحث على طلب العلم الشرعي؛ بغية نشره بين الناس.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

ومما يدل على أن المسئولية الكبرى في حفظ أمانة الدين تقع على عاتق العلماء والقادة قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ٦٣].

والربانيون هم الولاة والأحبار هم العلماء[2].

ومما يدل على مشاركة عامة الناس للقادة والعلماء في مسئولية حفظ أمانة الدين: ذمه سبحانه وتعالى اليهود والنصارى طاعة علمائهم في معصية الله سبحانه وتعالى والإيغال في ذلك.

قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

فعلى العلماء والقادة تقع أمانة التبليغ والتطبيق لأحكام الدين، وعلى العامة الطاعة في غير معصية الله سبحانه وتعالى.

ولا يعني التخصيص لأمانة حفظ الدين بالذكر أن المحافظة على باقي الأمانات أمر ثانوي لحصول التمكين، وإنما كان الاختيار لأمانة حفظ الدين لأمرين مهمين:

الأول: أن الحفاظ على هذه الأمانة هو الأساس لحصول التمكين، يفهم ذلك من تركيز القرآن على الدعوة لحفظ هذه الأمانة العظيمة.

الثاني: أن المحافظة على هذه الأمانة باعث للحفاظ على باقي الأمانات التي هي فرع، ولا انفصال بين الأصل والفرع كما هو معلوم، وبهذا الفهم الدقيق مكن الله سبحانه وتعالى للصالحين في الأرض، ومن الأمثلة على ذلك:

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۖ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى ۖ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣٠-٣٣].

هذا نبي الله سليمان عليه السلام يشغله حب الخيل وبهاء منظرها عن الصلاة، فيغضب لذلك، ويدرك خطورة الانشغال بمتاع الدنيا عن حفظ أمانة الدين، فيقوم

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ٤٠٣.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٥٤٣.

بعقر تلك الخيل[1].

وهذا هو الأساس الذي مكن الله سبحانه وتعالى به لسليمان عليه السلام.

ولما ارتد أناس عن الإسلام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بتركهم للزكاة أمر أبو بكر الصديق رضي الله عنه بتحريك الجيوش وقتال المرتدين؛ وذلك ليقينه بضرورة حفظ أمانة الدين من أجل بقاء التمكين للمسلمين[2].

وقد سار المسلمون الأوائل على هذا النهج القويم، وحافظوا على الأمانات التي استحفظ الله سبحانه وتعالى عباده عليها، متأولين بذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

فأمكن الله سبحانه وتعالى لهم حتى وصلت فتوحات المسلمين الصين شرقًا، والمحيط الأطلسي غربًا[3].

سابعًا: العدل:

يمثل العدل أحد أهم الركائز التي يستند إليها للحصول على التمكين مع ضمان بقائه واستمراره، وإن من أهم الدلالات على ذلك أن الله سبحانه وتعالى أمر بالعدل وجعله من جوامع الخير.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[النحل: ٩٠].

كما أنه سبحانه وتعالى نهى عن الجور، وذلك كما جاء في الحديث عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روي عن الله تبارك وتعالى أنه قال: **(يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا...)**[4].

والعدل مما أوصى به ربنا جل وعلا في كتابه العزيز.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

والعدل كما هو مفهوم من هذه الآية لابد له من أن يكون بعيدًا عن حظوظ النفس، فلا تؤدي العداوة لقوم إلى عدم إنصافهم[5].

ومما يعلل كون صفة العدل أحد أهم سبل الوصول إلى حالة التمكين أنه لا أحد

(١) انظر: الدر المنثور، السيوطي ٧/ ١٧٧.
(٢) انظر: حياة محمد صلى الله عليه وسلم، محمد حسين هيكل ص٣٣٢.
(٣) انظر: مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم ص٢٨٠.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ٤/ ١٩٩٤، رقم ٢٥٧٧.
(٥) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ١/ ٦٠٢.

من الخلق يقبل وقوع الهضم والحيف عليه، ومن ثم فإن النفوس تكره كل ظالم وبالذات إذا كان في موقع النفوذ والسلطان؛ لأن ظلمه يكون أشد وفرص معاقبته تكون محدودة إن لم تكن معدومة، والعكس صحيح، وهذا يعني أنه لابد لمن أراد التمكين في الأرض أن يتصف بالعدل؛ حتى ينال محبة الناس وثقتهم، فيحصل بذلك على ما أراد.

وقد أيقن المسلمون الأوائل أهمية العدل في حصول التمكين فحافظوا عليه، فحفظ الله سبحانه وتعالى عليهم ملكهم، ويسر لهم فتح البلاد، وحبب منهم العباد، ومن الشواهد على عدل الخلفاء الراشدين ما كان يوصي به عمر بن الخطاب رضي الله عنه قائلًا: «إني لم أسلطكم على دماء المسلمين، ولا على أموالهم، ولكني بعثتكم تقيموا بهم الصلاة، وتحكموا بينهم بالعدل»[1]، وغير ذلك من الشواهد كثير.

ثامنًا: التعاون:

العباد مأمورون من الله سبحانه وتعالى بأن يكونوا متعاونين متآزرين في الحق، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

والبر هو ما أمر الله سبحانه وتعالى به، والتقوى هو اجتناب ما نهى الله سبحانه وتعالى عنه[2].

ومن أبرز ما دعا الإسلام للتعاون من أجل تحقيقه هو الحصول على التمكين، أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

وهذه دعوة من الله سبحانه وتعالى للمسلمين بالتضامن مع بعضهم البعض لنصرة دين الله سبحانه وتعالى وإعلاء كلمته[3].

ومن المعلوم أن الجهاد في سبيل الله سبحانه وتعالى هو الطريق إلى تمكين المسلمين في الأرض يؤيد دعوة التناسب بين دعوة المسلمين إلى رص صفوف المجاهدين في سبيل الله سبحانه وتعالى وبين نهي المسلمين عن موالاة الكافرين قبل تلك الدعوة.

فقد قال سبحانه وتعالى في آخر آية من سورة الممتحنة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ [الممتحنة: ١٣].

ثم قال تعالى في أول سورة الصف التي تلي سورة الممتحنة مباشرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم

(١) شعب الإيمان، البيهقي، ٩/ ٤٩٣، رقم ٧٠٠٩.

(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتردي ٣/ ٤٢٣، لطائف الإشارات، القشيري ١/ ٣٩٨.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٥٥٢.

﴿بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

يقول المراغي عن مطلع سورة الصف: «ومناسبتها لما قبلها أنها اشتملت على الحث على الجهاد والترغيب فيه، وفي ذلك تأكيد المنهي الذي تضمنته السورة السابقة من اتخاذ الكفار أولياء من دون المؤمنين»[1].

وطلب المعونة من الغير ممن تجوز الاستعانة بهم في سبيل تحقيق التمكين للمسلمين في الأرض أمر مطلوب، وأولى من يستعان به لذلك هو الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٧- ١٢٨].

كما أنه يستعان بأسباب القوة المختلفة من أجل تحقيق التمكين.

قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٤- ٩٥].

فذي القرنين طلب المعونة من أجل بناء السد على الرغم من أنه صاحب قوة.

وتاريخ المسلمين يشهد بأنهم طلبوا العون في سبيل تحقيق التمكين، ومن ذلك ما حصل في غزوة الأحزاب حيث استعان الرسول صلى الله عليه وسلم بالصحابي الجليل نعيم بن مسعود الغطفاني رضي الله عنه من أجل تفريق كلمة الأحزاب[2]. وغير ذلك من الشواهد كثير.

(١) تفسير المراغي ٢٨/ ٧٩.

(٢) انظر: معارج القبول، حافظ الحكمي ٢/ ٥٦٥.

أهداف التمكين

تحدث القرآن الكريم عن أهداف التمكين وسوف نبينها فيما يأتي:

أولًا: إقامة شعائر الدين:

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان وأوكل إليه مهمة الاستخلاف، وهذه المهمة تشمل أمرين أساسيين، هما:

١. عبادة الله سبحانه وتعالى على الوجه الذي يرضيه جل وعلا.

٢. الإصلاح والتعمير في الأرض.

دل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

فرد الملائكة لما أخبرها ربها جل وعلا أنه سيجعل في الأرض خليفة بقولهم: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾، دل على أن الاستخلاف يلزم منه الإصلاح والتعمير، وقولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، دل على أن الاستخلاف يلزم منه العبودية لله سبحانه وتعالى[(١)].

مما سبق يتبين أن مهمة الخلافة هي مهمة حساسة؛ لكونها شديدة التأثر بما يحيطها من العوامل، وأبرز تلك العوامل هو عامل التمكين، فليس لأحد أن يقوم بمهام الاستخلاف في الأرض إلا إذا كان ممكنًا فيها، ويجب على المؤمنين بمجرد أن يمكن الله سبحانه وتعالى لهم في الأرض أن يسعوا بكل جهد إلى تحقيق مهام الاستخلاف التي أسندها الله سبحانه وتعالى إليهم، وأولى هذه المهام هي مهمة العبادة لله سبحانه وتعالى وحده، وإقامة شعائر دينه.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

وقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون وفي مقدمة المؤمنين الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم[(٢)]، ومما يشهد بذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أول ما قدم المدينة المنورة قام ببناء المسجد الذي يعتبر المقر الرئيس لإقامة شعائر الدين.

كما حرص الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم على السير على ذات الدرب الذي سار عليه المصطفى صلى الله عليه وسلم فكان في عهدهم أن جمع القرآن ونقط وشكل، وحورب المرتدون، وفتح

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٤٧٩، التفسير البسيط، الواحدي ١/ ١٩٤.

(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٤٤٤.

بيت المقدس، وعلا دين الله سبحانه وتعالى على ما سواه[1].

ثانيًا: عمارة الأرض:

الإسلام هو دين التعمير والبناء والإصلاح في الأرض، وقد أوجب الله سبحانه وتعالى على المؤمنين أن يعمروا في الأرض، دل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

والعمارة هنا نوعان:

الأول: معنوية بالصلاة والاعتكاف والذكر في هذه المساجد.

الثاني: مادية بالبناء والتشييد والتوسيع بهذه المساجد[2].

ودل على وجوب الإصلاح والتعمير في الأرض قوله صلى الله عليه وسلم: **(طلب العلم فريضة على كل مسلم)**[3].

والمقصود بالعلم هو كل علم نافع سواءً أكان علمًا دينيًا أو دنيويًا، وكما أن علوم الدين تدعو إلى توظيف الإمكانات للبناء والتعمير، فإن علوم الدنيا تشرف مباشرة على ذلك البناء والتعمير.

(١) انظر: ثلاثية البردة بردة الرسول صلى الله عليه وسلم، حسن حسين ص١٢٩.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٣٤٧.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، في المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، ١/ ١٠١، رقم ٢٢٤.
والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٣٩١٣.

أسباب زوال التمكين

وضح القرآن الكريم أسباب زوال التمكين، وسوف نتناولها بالبيان فيما يلي:

أولًا: الكفر:

الكفر بأقسامه وأنواعه يؤدي إلى زوال التمكين، يؤيد ذلك قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ [الدخان: ١٧-٢٧].

فهذه الآيات تتحدث عن فرعون وملئه، وعن عاقبة إفسادهم في الأرض، حيث أغرقهم في البحر بعد أن كانوا أهل سيادة في الأرض[(١)].

ثانيًا: الظلم:

الظلم بأنواعه سبب من أسباب زوال التمكين، يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: ٩٦-١٠١].

فهذه الآيات تتحدث عن إهلاك الله سبحانه وتعالى لقوم موسى عليه السلام بسبب ظلمهم أنفسهم بالكفر والمعاصي[(٢)].

ثالثًا: كفران النعمة:

مما لا شك فيه أن إنكار ونسيان النعم التي من الله سبحانه وتعالى بها على عباده من أعظم الأسباب التي تؤدي إلى زوال تلك النعم، ولما كانت نعمة التمكين من أعظم ما يمن به الله سبحانه وتعالى على عباده كان إهمالها ونكرانها أحد أعظم الأسباب التي تؤدي إلى زوال تلك النعمة والحرمان منها.

ومما يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٤/ ١١٨.

(٢) انظر: التفسير البسيط، الواحدي ١١/ ٥٤٦.

﴿كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

وهذا مثل ضربه الله سبحانه وتعالى لمن يكون في رغد من العيش وسعة، ثم يكفر بما أنعم الله سبحانه وتعالى به عليه لتكون عاقبته الحرمان من تلك النعم[١].

ونظرًا لخطورة كفران النعمة فقد حذر الله سبحانه وتعالى عباده من الانجرار وراء رغبات نفوسهم التي تأمرهم بالجحود والنكران.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦].

﴿لَكَنُودٌ﴾ هو الكفور[٢] الذي يذكر المصائب، وينسى النعم[٣].

وقد أكد الحق جل وعلا بالمؤكدات الثلاث: القسم، وإن، واللام؛ للمبالغة في تحذير الإنسان من كفران النعمة الذي ينجم عن الانصياع للنفس التي تنسى ما أنعم الله سبحانه وتعالى به عليها، وتذكر ما ابتلاها به فقط، ومن ثم يكون من الواجب على العبد أن يؤدب نفسه، ويذكرها بوافر نعم الله سبحانه وتعالى كلما حرضته على جحود تلك النعم العظيمة، والتي في مقدمتها نعمة التمكين.

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٨/ ٤٢٨٤.
(٢) انظر: تفسير التستري، ١/ ٢٠٣.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٥٨٥.

رابعًا: ارتكاب الذنوب:

وعد الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين الصالحين المداومين على فعل الطاعات بالغلبة والتمكين في الأرض، فقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

ويفهم من هذا الوعد الإلهي بالمخالفة أن الكفر بالله وإتيان الذنوب يؤديان إلى زوال التمكين.

ومما يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ [الطلاق: ٨- ٩].

والعتو عن أمر الله سبحانه وتعالى إنما يكون بمعصيته وارتكاب الذنوب[٤].

لذلك فإنه من الواجب على العباد أن يحذروا من الوقوع في الذنوب؛ لئلا تزول عنهم نعمة التمكين.

موضوعات ذات صلة

الخلافة، النجاة، النصر

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٤٦٩.

فهرس المحتويات

التزكية ٧

مفهوم التزكية ٨

التزكية في الاستعمال القرآني ٩

الألفاظ ذات الصلة ١٠

من له تزكية النفوس؟ ١٣

أنواع الثناء على النفس ١٧

أنواع التزكية ٢٢

التزكية وظيفة الأنبياء وأتباعهم ٢٥

وسائل التزكية في القرآن ٢٩

جزاء التزكية ٤٧

التسبيح ٥٣

مفهوم التسبيح ٥٤

التسبيح في الاستعمال القرآني ٥٥

الألفاظ ذات الصلة ٥٦

تسبيح الله عز وجل نفسه ٥٧

المسبحون لله عز وجل من المخلوقات ٦٤

من صيغ التسبيح ٨٨

مواطن التسبيح ٩٤

أزمنة التسبيح ١٠٢

فوائد التسبيح ١٠٩

التسخير ١١١

مفهوم التسخير ١١٢

التسخير في الاستعمال القرآني ١١٣

الألفاظ ذات الصلة ١١٤

دلالات التسخير العقدية ١١٦

مظاهر التسخير ١٢٢

آثار التسخير الإيمانية على العبد ١٣١

آثار التسخير في عمارة الأرض ١٣٦

التشاؤم ١٤٣

مفهوم التشاؤم ١٤٤

الألفاظ ذات الصلة ١٤٥

التشاؤم عادة جاهلية ١٤٧

أسباب التشاؤم ١٥٣

صور التشاؤم ١٦٣

نسبة المصائب إلى أشخاص ١٧٧

آثار التشاؤم ١٧٨

علاج التشاؤم ١٨٠

التطوع ١٩٣

مفهوم التطوع ١٩٤

التطوع في الاستعمال القرآني ١٩٧

الألفاظ ذات الصلة ١٩٨

أنواع التطوع ١٩٩

الحث على التطوع ٢٠٣

دوافع التطوع في القرآن الكريم ٢٠٨
أسس التطوع ٢١٢
عقبات التطوع ٢١٤
مجالات التطوع الاجتماعي في القرآن ٢١٦
نماذج قرآنية للتطوع الاجتماعي ٢٢٦
التغيير ٢٣٣
مفهوم التغيير ٢٣٤
التغيير في الاستعمال القرآني ٢٣٥
الألفاظ ذات الصلة ٢٣٦
التغيير المسند لله تعالى ٢٣٨
أنواع التغيير ٢٤٣
أسباب التغيير ٢٥٥
مجالات التغيير ٢٧١
ثمرات التغيير وآثاره ٢٧٥
التفكر ٢٧٩
مفهوم التفكر ٢٨٠
التفكر في الاستعمال القرآني ٢٨٢
الألفاظ ذات الصلة ٢٨٣
الحث على التفكر ٢٨٧
مجالات التفكر ٣٠٢
نتائج التفكر وثمراته ٣٢١
التقليد ٣٤١
مفهوم التقليد ٣٤٢
الألفاظ ذات الصلة ٣٤٤
أسباب التقليد ٣٤٦
مجالات التقليد ٣٦٤
آثار التقليد والتبعية ٣٩٠
مواجهة التقليد والتبعية ٤٠٢
التقوى ٤٢١
مفهوم التقوى ٤٢٢
التقوى في الاستعمال القرآني ٤٢٣
الألفاظ ذات الصلة ٤٢٤
أصناف المخاطبين بالتقوى ٤٢٦
أساليب الأمر بالتقوى ٤٢٨
صفات المتقين ٤٣٠
مكانة التقوى ٤٤٩
فضائل التقوى ٤٥٣
عاقبة التقوى وآثارها ٤٧١
التمكين ٤٧٧
مفهوم التمكين ٤٧٨
التمكين في الاستعمال القرآني ٤٧٩
الألفاظ ذات الصلة ٤٨٠
التمكين مشيئة إلهية ٤٨٢
أنواع التمكين ٤٨٥

مقومات التمكين ٤٨٩
أهداف التمكين ٥٠٤
أسباب زوال التمكين ٥٠٦
فهرس المحتويات ٥٠٩